العمارة الإسلامية في العهد العباسي - ABBASID ARCHITECTURE

العمـــــارة الســـــلجـوقيـــة

Seljuk Architecture

ظهر السلاجقة على الساحة السياسية في مركز الخلافة العباسية وفي عدد من أقاليم العالم الإسلامي في فترة زمنية اختلفت من إقليم إلى إقليم من عام 429 هـ/1038 م إلى عام 707 هـ/1307 م.

بدأ ظهور الأتراك السلاجقة حين هاجرت قبائلهم من موطن الأتراك في أقصى سهول تركستان إلى إيران في عهد الدولة السامانية. أقام زعيمهم سَلجوق بن دقاق دولة مستقلة عاصمتها مدينة الري، توسعت على حساب الغرنويين والبويهيين. دخل السلاجقة إلى بغداد لإنقاذ الخلافة من استبداد البويهيين وأصبحوا في عام 451 هـ/1058 م مسؤولين عن دولة الخلافة وحامين لها برضى الخليفة العباسي.

بلغت السلطنة السلجوقية أوج قوتها واتساعها في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر الميلادي، فوصلت حدودها غربا إلى سواحل بلاد الشام وإلى الحجاز واليمن وشرقا إلى حدود الصين وتم الاستيلاء على أرمينيا والأناضول عام 1071 م وبذلك بدأ استقرار الأتراك في آسيا الصغرى ونشر الإسلام والحضارة الإسلامية فيها. نظرا لاتساع رقعة هذه السلطنة فإن نهاية العهد السلجوقي تختلف من إقليم إلى آخر، فهو ينتهي في العراق بسقوط بغداد (1258 م) وفي بلاد الشام بقيام الدولة الأيوبية وفي الأناضول بقيام الدولة العثمانية.

أما فيما يتعلق بالحركة العمرانية فقد كان من آثار تعدد الدويلات ازدهار عدد كبير من المدن والعواصم كمراكز حضارية منها: بغداد والموصل ودمشق وحلب وقونية وأصفهان والري وبخارى وسمرقند.

وظهرت المدرسة كمؤسسة ثقافية ومعمارية وانتشر بناء المدارس في كل المدن اقتداء بالمدرسة النظامية التي أنشأها الوزير السلجوقي نظام الدين في بغداد، بعد أن كان التعليم الديني يتم سابقا في حلقات المساجد. وانتشر كذلك بناء البيمارستانات كمستشفيات ومدارس لتعليم الطب، إضافة إلى الخانات في المدن وعلى طرق القوافل وظهر نموذج جديد من المباني يعرف بالخانقاه وهي بيوت للمتصوفين وأبناء السبيل، كما بنيت المساجد والترب والحمامات أيضا. بينما نلاحظ ندرة القصور، إذ بدأ في هذه الفترة الاهتمام ببناء وتجديد القلاع في المدن واتخذها الحكام مقرا لسكناهم.

1. عمـــارة العـــهد الســـلجوقي في بـــلاد الشـــام

تتواجد في مدن بلاد الشام كثير من الأبنية التي شيدت في العهد السلجوقي، منها مدارس وبيمارستانات وخانقاهات يعود أغلبها إلى أيام نور الدين محمود بن زنكي، الذي يعتبر عهده فترة ازدهار بالنسبة لبلاد الشام، لم تشهد مثلها منذ العهد الأموي.

1.1. البيمارســتان النــوري في دمشــق Bimaristan al-Nouri

شيد نور الدين بيمارستانا في كل من دمشق وحلب وحماة ولكن بيمارستان دمشق هو أشهرها. تم ترميمه منذ عدة سنوات وحول إلى متحف للطب العربي. بني البيمارستان في منتصف القرن السادس للهجرة / الثاني عشر الميلادي ليكون مشفى ومدرسة للطب وبقي كذلك حتى مطلع القرن العشرين. جرى توسيعه عام 637 هـ وأضيفت إليه بيوت مجاورة ليتسع لعدد أكبر من المرضى. ويضم المبنى اليوم متحف الطب العربي.

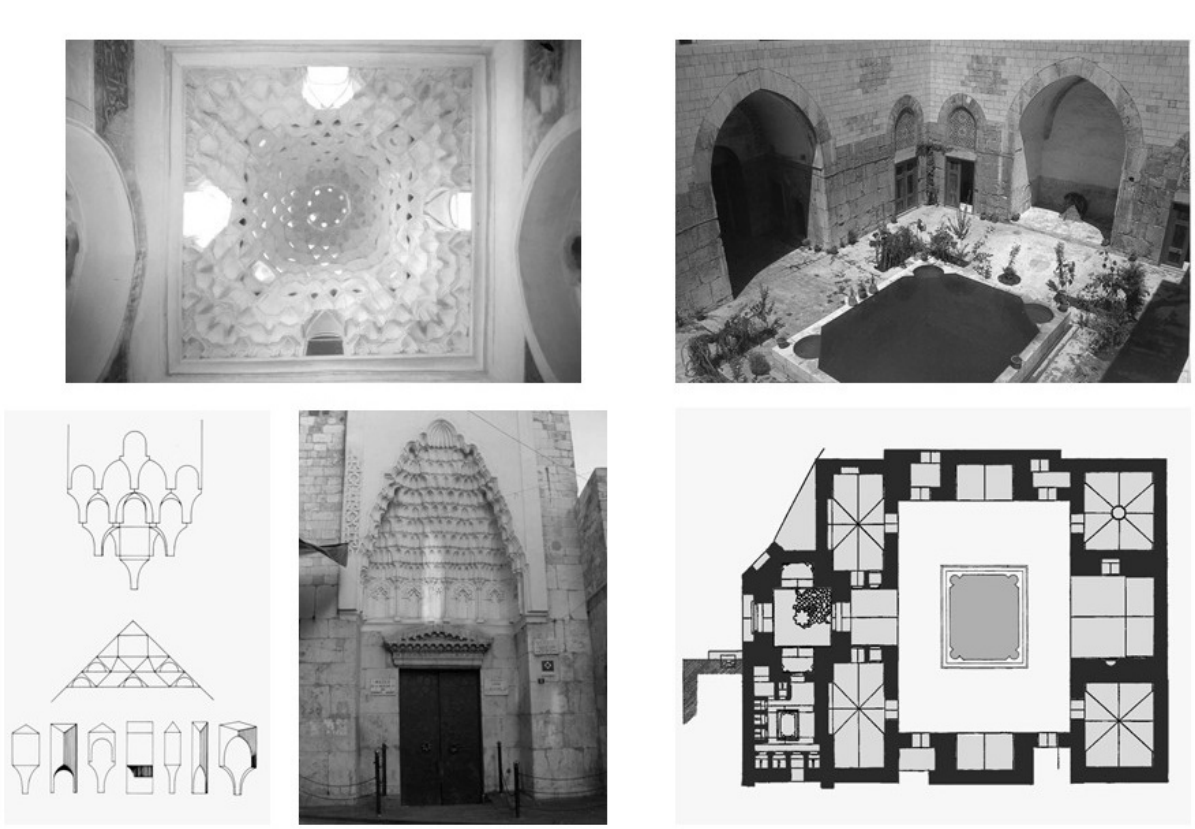

البيمارستان النوري في دمشق: الفناء الداخلي - المسقط - المدخل - القبة المقرنصة في بهو الدخول

يتوسط المبنى فناء داخلي أبعاده 20 × 15 م، تتوسطه بركة ماء كبيرة مستطيلة الشكل، تتميز بحنايا نصف دائرية في أركانها. تنفتح على الفناء أربعة إيوانات مختلفة الاتساع، يتوسط كل منها أحد جهات الفناء، بحيث يتقابل كل اثنين منهما مشكلين محورين متعامدين، تقاطعهما هو مركز بركة الماء. هذا التصميم معروف بالتصميم المتصالب. وتتواجد في زوايا المبنى أربع قاعات رئيسة مسقوفة بقبوات متصالبة، يتم الدخول إليها جميعا من الفناء.

الإيوان الغربي المطل على الفناء مرتبط بمدخل المبنى المميز. المدخل يبدأ بباب غائر قليلا ينتهي في أعلاه بمجموعة من المقرنصات. الباب يؤدي إلى بهو مربع مسقوف بقبة مميزة وعلى جانبيه إيوانان صغيران. البهو يفضي بشكل محوري إلى الفناء الداخلي مجتازا الإيوان الغربي. بهو المدخل مسقوف بقبة من نوع جديد يظهر لأول مرة في بلاد الشام ضمن هذا المبنى، وهي عبارة عن قبة مخروطية لها شكل مقرنص من الخارج ولكنها تعتمد المقرنصات من الداخل أيضا وتعطي الفراغ فخامة غير معهودة.

مبدأ المقرنصات يعتمد على استخدام مجموعة محدودة من العناصر ذات المقاطع والأشكال المختلفة التي تعطي بتنسيقها إلى جانب بعضها على شكل طبقات متتالية، ما ينتج عنه الشكل المميز للمقرنص، الذي يعد من العناصر الإنشائية والتزيينية المميزة للعمارة الإسلامية، كونه لا يتواجد في غيرها. والمميز هنا هو استخدام الحجر كمادة للبناء.

المبنى مشيد بالحجر الكلسي المنحوت بإتقان. الإيوان الشرقي أكبر الإيوانات، قوسه من النوع المدبب المرسوم من مركزين. القبوة الأسطوانية التي تشكل سقف الإيوان تكرر هذا القوس. يمتاز هذا الإيوان بكونه أعلى من الفراغات المجاورة له، مما يفسر بروز واجهته نحو الأعلى ويميزه كإيوان رئيس مقابل للمدخل. يعتقد أنه كان يستخدم لإلقاء محاضرات ودروس الطب. يعلو الأبواب المؤدية إلى القاعات والفراغات المختلفة نوافذ علوية على شكل قوس مدبب تضم شبكا جصيا ذو أشكال هندسية ونباتية متقنة التنفيذ، يسمح بإدخال النور إلى هذه الفراغات.

2.1. المدرسة والتربة النورية في دمشق al-Madrasah al-Nouriya

أنشأ السلاجقة عددا من المدارس في دمشق وحلب، زال أكثرها. وتعتبر المدرسة النورية التي شيدها نور الدين محمود بن زنكي حوالي سنة 563 هـ/1167 م في دمشق أهم مثال لا زال قائما من هذا العهد.

المدرسة تنفتح ببوابتها على سوق الخياطين. للمبنى فناء داخلي مستطيل تتوسطه بركة مستطيلة مماثلة لتلك الموجودة في بيمارستان نور الدين، وهي تقع على محور الإيوانات الثلاثة التي تتوسط كلا من الجهات الشمالية والشرقية والغربية. بينما يحتل وسط الجهة الجنوبية قاعة للصلاة. وقد هدمت الجهة الشمالية من المدرسة أثناء توسيع للشارع المجاور ولم يبق منها إلا قوس الإيوان. وأقيم مكانها مبنى حديث. تحيط بالاواوين من كل جانب غرف مخصصة لإقامة المدرسين والطلاب.

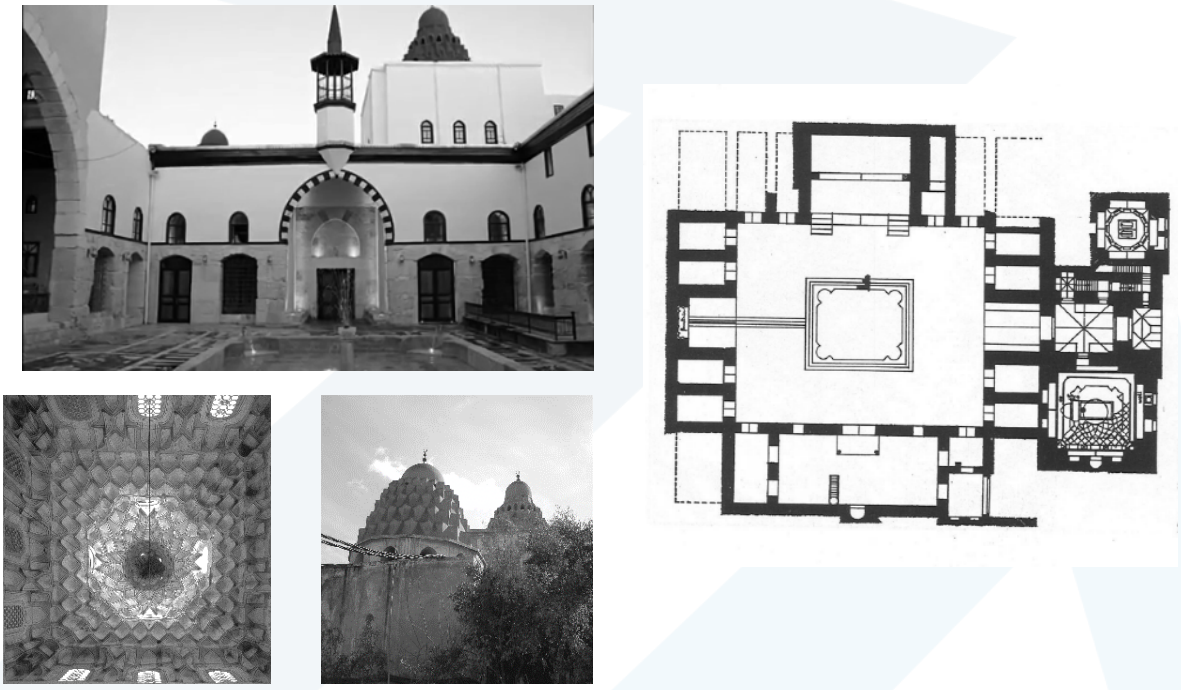

المدرسة والتربة النورية في دمشق: المسقط - الجهة الغربية من الفناء الداخلي - القباب المقرنصة

أهم ما يلفت النظر في هذه المدرسة الفراغين اللذين يحفان بالمدخل وتعلو كل منهما قبة مخروطية مقرنصة من الداخل والخارج يتوجها في الأعلى قبة صغيرة. دفن تحت الجنوبية منها السلطان نور الدين. وهناك درج يفضي من المدخل إلى الطابق العلوي الذي يضم فراغات إضافية تابعة للمدرسة.

3.1. مئـذنة الجـامع الكـبير في حلـب Minaret of the Great Mosque of Aleppo

تعد مئذنة الجامع الكبير في حلب من أهم المنشآت التي تعود إلى الفترة السلجوقية وتتميز بطابعها السوري الخاص. الجامع يعود إلى العهد الأموي ولكن تم تجديده في العهود اللاحقة، بحيث لم يبق من الجامع الأموي إلا مخططه.

المئذنة الوحيدة للجامع شيدت في بداية العهد السلجوقي في أيام قسيم الدولة آق سنقر. بنيت المئذنة ما بين 1091-1094 م وهي مشيدة من الحجر الكلسي المنحوت بإتقان، على شكل برج مربع ارتفاعه حوالي 50 م. يقسم إلى خمس طبقات، يفصل بينها أفاريز بارزة وشريط كتابي محيطي. واجهات كل طبقة منسقة بطريقة متناظرة، تزينها أقواس منبسطة ذات أشكال مفصصة. المئذنة تنتهي في أعلاها بشرفة للأذان محمولة على كورنيش من المقرنصات تحتها شريط كتابي محيط ونص كتابي. كانت نهاية المئذنة على شكل قبة صغيرة.

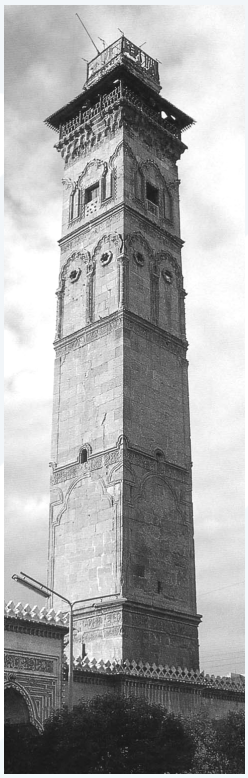
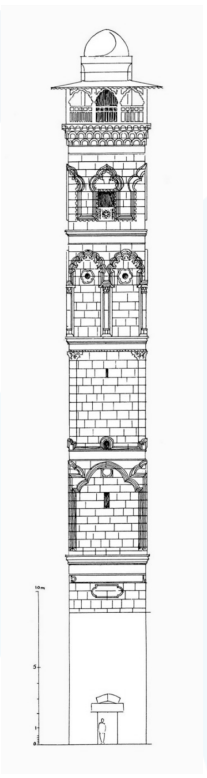

مئذنة الجامع الكبير في حلب

كلما ارتفع المنسوب في المئذنة، زادت الزخارف إتقاناً، وارتفعت درجة التفاخر في الكتابات حسب الترتيب السياسي الطبقي، ففي أعلى منسوب، تظهر البسملة، ويذكر السلطان السلجوقي، ويظهر في المنسوب الذي يليه إلى الأسفل ذكر الأمير السلجوقي التركي حاكم حلب. المنسوب الثالث منقوش باسم الآمر بالبناء وهو القاضي محمد بن الخشاب، يليه تبريك عام من القرآن لكل من ينشئ مسجداً، وأخيراً، يحمل الطابق الأول إطاراً زخرفياً بسيطاً يضم اسم المهندس، وتاريخ البناء: "صنعة حسن بن المفرج السرماني سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة".

تتميز هذه المئذنة بعمارة محلية ذات زخارف رصينة، انتشرت فيما بعد في الفترة الأيوبية. كما أنها لم تكن المئذنة الوحيدة التي بناها المعمار فإليه تنسب أيضا مئذنة الجامع الكبير في معرة النعمان وهي أصغر قليلا وأكثر بساطة من مثيلتها الحلبية ولكنها لا تقل عنها إتقانا وجمالا.

دمرت مئذنة الجامع الكبير في حلب بالكامل في نيسان من عام 2013 وبدأت أعمال إعادة بنائها باستخدام ما تبقى من حجارتها الأصيلة عام 2019.

2. عمـــارة العـــهد الســـلجوقي في العـــراق

شهدت مدينة بغداد نشاطا عمرانيا ومعماريا بعد أن عادت العاصمة إليها من سامراء. فتأسست دار الخلافة على الضفة الشرقية لدجلة وأحيطت بسور نصف دائري. واتسعت بغداد حول دار الخلافة ونشأ ما يعرف ببغداد الشرقية. ولكن معظم أبنية الفترة السلجوقية تهدم ومن أشهر ما بقي منها المدرسة المستنصرية إضافة إلى ما يعرف بالقصر العباسي.

1.2. المدرســـة المســـتنصرية في بغـــداد al-Madrasah al-Mustansiriya

تعد المدرسة المستنصرية من المدارس القليلة الباقية في بغداد من العهد السلجوقي. شيدها الخليفة العباسي المستنصر بالله على ضفة نهر دجلة في بغداد الشرقية في عام 630 هـ/1232 م، وقد وقفها لتدريس المذاهب الفقهية الأربعة وتضم سكنا للطلاب والمدرسين.

المبنى الذي نراه اليوم هو نتيجة ترميم حديث. البناء مستطيل الشكل، طوله 106 م وعرضه 48 م. يتوسطه فناء داخلي واسع محاط بالفراغات المختلفة التي تتوزع على طابقين وهي مخصصة للتدريس ولسكن المدرسين والطلاب. يتوسط كل من الجهة الشرقية والغربية والشمالية إيوان بارتفاع طابقين وواجهة تبرز عن بقية الواجهات، بينما يحتل منتصف الجهة الجنوبية قاعة صلاة كبيرة تنفتح على الفناء بقوس يبرز عن الواجهة ويشبه الإيوان ولكنه مغلق (تصميم متصالب). الإيوان المقابل في الشمال يتصل مباشرة بمدخل المدرسة الضخم. ويتوسط الفناء بركة ماء مستطيلة. يتم الوصول إلى فراغات الطابق الأرضي من الفناء مباشرة، بينما يؤدي رواق إلى فراغات الطابق العلوي.

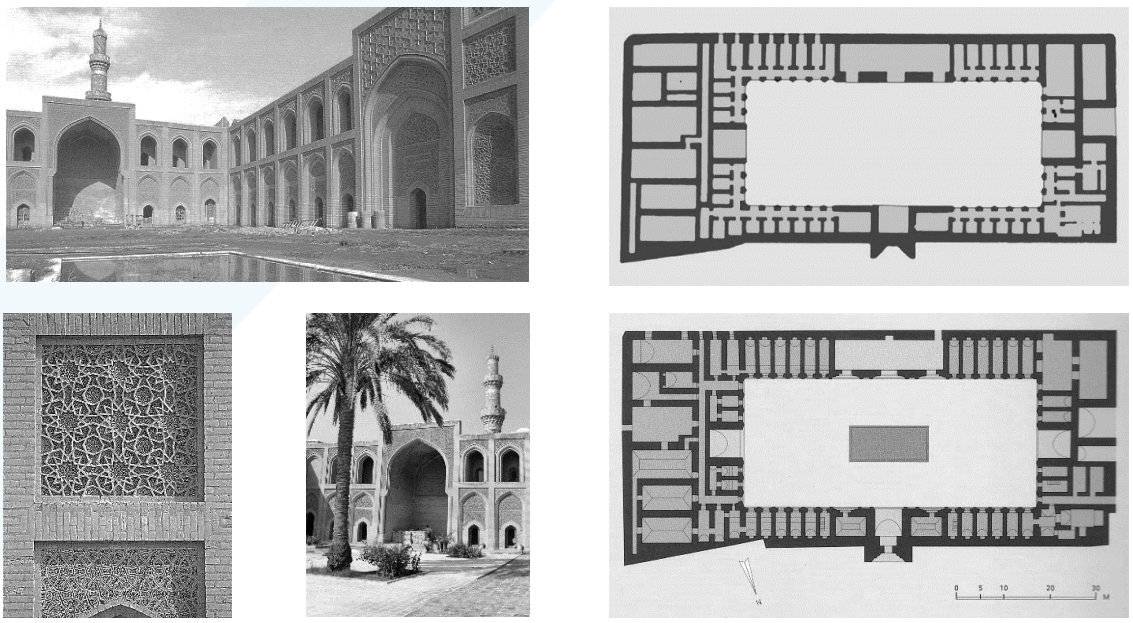

المدرسة المستنصرية في بغداد: المساقط - واجهات الفناء الداخلي مع الأواوين - الزخارف الآجرية

المدرسة مشيدة بالكامل من الآجر وفراغاتها مسقوفة بأنواع مختلفة من القبوات الأسطوانية والتكنات. الأقواس المختلفة التي تنفتح في الواجهات الداخلية المطلة على الفناء هي من النوع العباسي المرسوم من أربعة مراكز. السطوح المحيطة بالأقواس تزدان بزخارف آجرية بديعة ومتقنة تعتمد على الأشكال هندسية ونجمية مختلفة تحيط بزخارف نباتية.

2.2. الأضرحـــة أو التـــرب Mausoleum

بقي في بغداد من الفترة السلجوقية نوع آخر من الأبنية وهي الأضرحة أو الترب. وهي تتميز بقباب مخروطية تتألف من الخارج والداخل من عدة طبقات من المقرنصات وتنتهي في الأعلى بقبة صغيرة. وهي تشبه ما رأيناه في دمشق في كل من مدرسة وبيمارستان نور الدين ولكنها تبدو أكثر رشاقة.

أهم الترب في العراق: **تربة السيدة زمرد خاتون**: وهي أم الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة سنة 599هـ/1202 م. التربة تقع في الكرخ في بغداد الغربية. مسقط التربة مثمن الشكل تعلوه القبة المخروطية المقرنصة. ومن الترب الأخرى المماثلة **تربة الشيخ عمر السهروردي**، المتوفى سنة 632 هـ/1235 م وهي تقع قرب أسوار بغداد الشرقية. تعلوها قبة مقرنصة مخروطية الشكل أيضا.

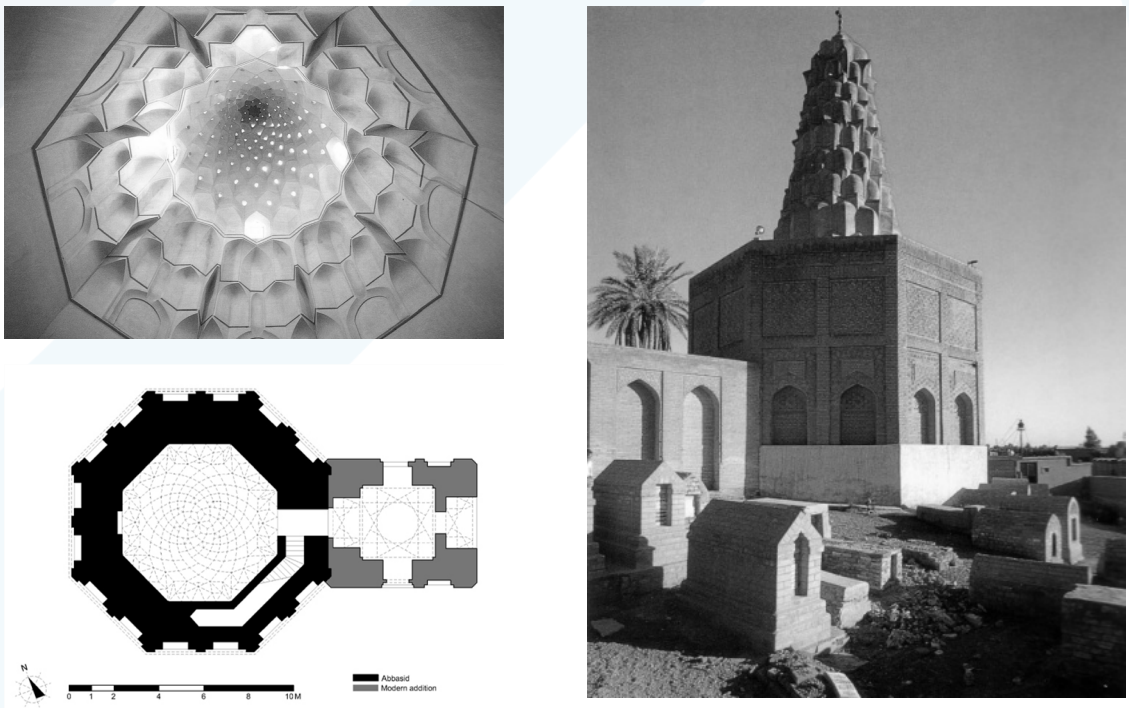

تربة زمرد خاتون في بغداد (الكرخ): المبنى المثمن ذو القبة المخروطية المقرنصة - المسقط

3. عمـــارة العـــهد الســـلجوقي في الأناضـــول

أصبحت الأناضول في هذه الفترة أرضا إسلامية وذلك بعد معركة ملازكرد 634 هـ/1071 م. وبدأت المباني الإسلامية تظهر لأول مرة في هذه المنطقة، فقد شيد السلاجقة المساجد والمدارس والأضرحة والبيمارستانات والخانات. ولكن هذه المباني طبعت بطابع خاص بسبب المعطيات المحلية في الأناضول من حيث المناخ ومواد البناء المتوفرة بالإضافة إلى التأثيرات المعمارية الأقدم والتي تعود إلى البيزنطيين والأرمن. يعد القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد عصرا ذهبيا للعمارة السلجوقية في الأناضول. وقد أقيمت مبان كثيرة في مدن إسلامية جديدة مثل قونية وأرضروم وقيصرية وديفريغي وملاطية.

ظهرت اختلافات في تصميم الأبنية بسبب المناخ القاري الشديد البرودة شتاء فنجد لأول مرة في تاريخ العمارة الإسلامية أبنية ذات فناء أو فراغ وسطي مسقوف. كما أن هناك ظاهرة جديدة أخرى تكمن في إنشاء المجمعات المعمارية التي تضم مسجدا ومدرسة أو مسجدا وبيمارستانا. أما من حيث العناصر المعمارية فنلاحظ اهتماما كبيرا ببوابات الأبنية وبزخرفتها حيث سادت في الأناضول الزخارف الحجرية النافرة.

1.3. مسـجد وبيمارسـتـان ديـفريغي Mosque and Bimaristan in Divrigi

يمثل هذا البناء النموذج الجديد من المجمعات لأنه يضم مسجدا وبيمارستانا. شيده أحد الأمراء المحليين عام 626 هـ / 1228 م.

البناء مستطيل الشكل، يحتل المسجد القسم الشمالي منه وثلثي مساحة المبنى، بينما يحتل البيمارستان القسم الجنوبي ويفصل جدار القبلة بين الاثنين. للمسجد ثلاثة مداخل، الرئيسي منها في الشمال. وهناك مئذنة في الزاوية الشمالية الغربية. المسجد مستطيل مقسم إلى خمسة مجازات عمودية على جدار القبلة، تقسم بواسطة صفوف من الأقواس المتعامدة معها إلى خمسة مجازات أخرى وجميعها مسقوف بقبوات متصالبة مميزة، عدا المجاز المركزي المفتوح الذي تعلوه قبة خشبية مثمنة وكذلك المجاز الذي يتقدم المحراب مباشرة والذي تغطيه قبة محززة من الداخل بينما يعلوها من الخارج مخروط حجري، يذكر بالعمارة الأرمنية.

يتمتع البيمارستان بمدخل خاص في الجهة الغربية يؤدي عبر بهو إلى فراغ داخلي مركزي مربع الشكل يقسم بواسطة أربعة أعمدة إلى مجازات تغطيها قبوات مختلفة. ينفتح على الفراغ الداخلي ثلاثة إيوانات (تصميم متصالب ذو فناء مسقوف)، ما عدا في جهة المدخل وتقع قاعات وفراغات مختلفة في الأركان. أي أن المسقط ذو تصميم متصالب ولكن بفناء مسقوف. يشتهر المبنى ببواباته الغائرة التي تنتهي بأقواس وتزينها الزخارف الحجرية النافرة.

https://manara.edu.sy/

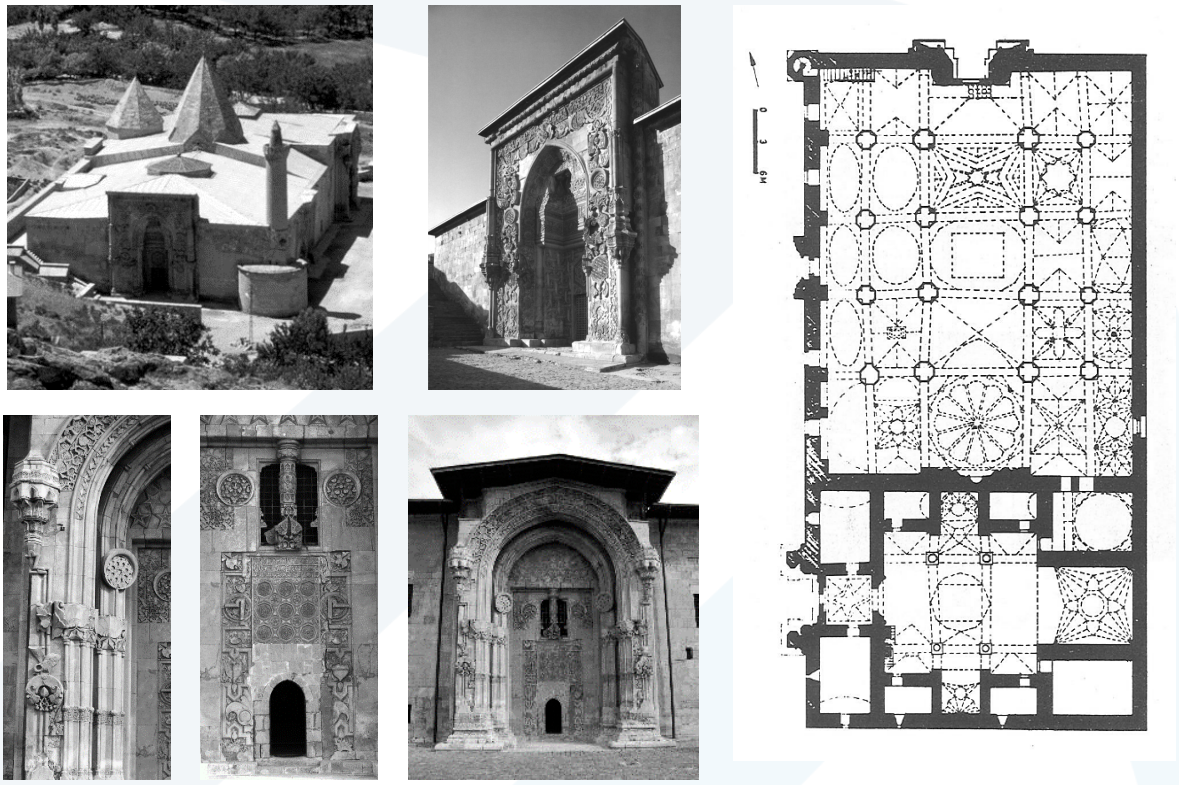

مسجد وبيمارستان ديفريغي: المسقط - البوابة الشمالية للمسجد - صورة جوية - البوابة الغربية للبيمارستان مع تفاصيلها

2.3. مدرسة إنجا منارة في قونية Madrasah Ince Minarelli in Konya

شيد هذه المدرسة الوزير "صاحب أتا" سنة 659 هـ/1260 م. وهي ذات فناء مسقوف، تتوسطه بركة ماء تعلوها قبة محمولة على أشكال موشورية، وهي مفتوحة في قمتها لإدخال النور. يحيط بالفناء المسقوف غرف وقاعات مخصصة للتدريس ولسكن المدرسين والطلاب.

كان للمدرسة مئذنة شهيرة أعطتها اسمها ولكن لم يبق منها اليوم إلا القسم السفلي. تشتهر المدرسة ببوابتها الغائرة، التي تنتهي بقوس في أعلاها وتمتاز بزخارفها الحجرية النافرة، ولا سيما بالأشرطة الكتابة الممتدة عموديا والتي تلتقي فوق قوس الباب مشكلة دائرة من الخطوط المتقاطعة ثم تستمر نحو الأعلى. تمتاز هذه الزخارف الحجرية بإتقانها ودقة صنعها وغلبة الخطوط المتقاطعة على تصميمها.

https://manara.edu.sy/

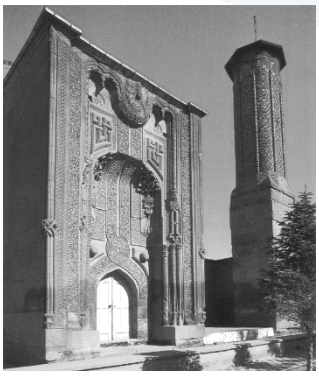
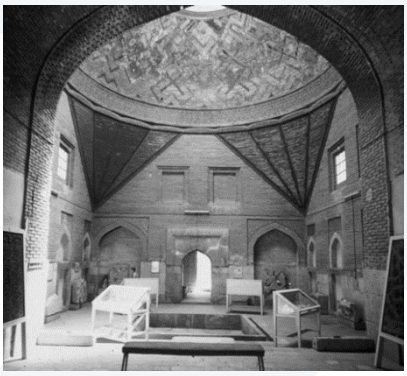
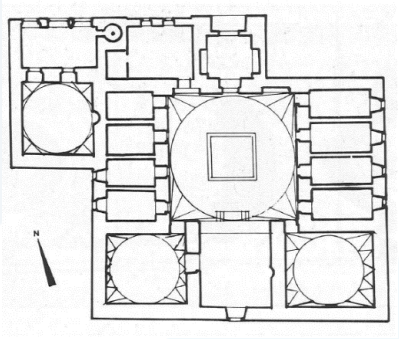

مدرسة إنجا منارة في قونية: المسقط - الفناء الداخلي المسقوف - البوابة الشمالية المزخرفة

4. خصـــائص العمـــارة الســـلجوقيـة

هناك تطور لافت للنظر في العمارة السلجوقية، فقد ظهرت عناصر جديدة في التصميم والإنشاء والزخرفة منحت أبنية هذه الفترة طابعا مميزا. ولكن عمارة العهد السلجوقي تختلف باختلاف الأقاليم نظرا لاختلاف المناخ ونوعية مواد البناء المتوفرة، بالإضافة إلى تقاليد البناء المحلية. وتظهر هذه الفوارق واضحة في أبنية الأناضول وبلاد الشام الحجرية التي تختلف عن العمارة الآجرية في العراق وإيران.

ولكنها جميعا تحمل عناصر مشتركة أهمها:

1. **تطور تصميم المباني**: أصبح الإيوان عنصرا أساسيا في المساجد والمدارس والبيمارستانات. ويمكن أن تتعدد الإيوانات وقد تكون أربعة موزعة على الجهات الأربع وعلى محاور متعامدة وهو ما يسمى بالتصميم المتصالب. وأصبحت البركة عنصرا أساسيا في وسط الفناء، وهي مربعة أو مستطيلة الشكل، كثيرا ما يكون لها حنايا في أركانها.
2. **تطور العناصر المعمارية**: أهم التطورات التي حصلت ظهور المقرنصات كعنصر إنشائي وزخرفي يستخدم في إنشاء القباب وعقود المحاريب والبوابات ويحمل شرفات المآذن.
3. **تطور العناصر الزخرفية**: تطورت الزخارف المنحوتة من الحجر في الأناضول إلى نحت نافر، ذي أشكال هندسية ونباتية. أما أبنية الآجر فقد اعتمد في زخرفتها على تشكيلات آجرية بلغت مستوى رائعا في التعبير بالزخارف الهندسية التي يتخللها أحيانا الكتابة بخط كوفي أو ثلث.

ولا شك أن هناك تأثيرات متبادلة في الفترة السلجوقية بين الأقاليم المختلفة، كما كان لعمارة هذه الفترة تأثيرات واضحة على الفترات اللاحقة.